... الفاشست ينشطون

«الفاشيزم مدينة بنجاحها إلى مساعدة الظروف والأحوال، إذ فزع المتمولون فى إيطاليا من عجز الحكومة عن قمع الحركات الشيوعية فى البلاد والتفوا حول الفاشست حيث رأوا أن تحميل عبء مطاردة الشيوعية على عاتق الفاشست أولى من تركه إلى الحكومة التى كانت عمياء فوق ما هى ضعيفة. ولا ريب فى أن الفاشزم لو لم تكن مؤلفة من رجال شديدى البأس والعزيمة لما كانت تنال هذا الفوز الباهر فى وقت قليل»[١].

وهكذا تنحدر الرجعية المصرية فى حربها العنيفة ضد اليسار لتلجأ إلى الدعاية للفاشية فى محاولة للإيهام بأن الفاشية هى السبيل لصد تيار اليسار..

ولقد كان هذا التصور سبيلا لسلسلة من المقالات والكتابات التى سعت إلى تمجيد الفاشية «أصبح موسولينى حديث أوروبا بأسرها بل العالم أجمع. وهو فى الحقيقة من أعظم رجال هذا العصر إن لم يكن أعظمهم طرا. وقد أتى منذ توليه زمام الأمور فى إيطاليا أعمالا مجيدة وجعل الشعب الإيطالى يقلع عن كثير من العادات القديمة التى كادت تؤدى بإيطاليا إلى الثورة والخراب»[٢].

وهكذا أصبح موسوليني ملهما لكل أعداء اليسار ونموذجا يتعين السعى لخلق مثيل له لكبح جماح الشيوعيين «فأوروبا تنبهت إلى ما تقدم، وكان لها من قيام الفاشست فى إيطاليا ونهوضهم بهذه البلاد التى كادت تهوى إلى هاوية الشيوعية ويتقوض عمرانها عبرة اتخذها الأوروبيون مثلا يحتذونه، خصوصا بعد الذى شاهدوه من صنيعها واستتباب الأمن وإطلاق الحرية الشخصية حتى شخصت إلى هذه الحركة الأبصار ودارت عليها المباحث فاستنتجوا من نجاحها ما يجب الاقتداء به. وعليه قامت طوائف من الأوروبيين فى مختلف البلدان إلى تأليف الجمعيات الفاشستية وصارت عندهم رمزا إلى حب العمل والإخلاد إلى النظام.. وهذا انتصار اجتماعى نالت به إيطاليا فوزا كبيرا أكسبها ميل الشعوب الأوروبية وأحلها محل الاحترام عندهم. وقد سمعت كثيرين يعربون عن الأسف على أن لا يكون عندهم موسوليني من أهل بلادهم ليسيِّر دفة البلاد إلى العمل والنجاح»[٣].

وليس الأمر بحاجة إلى تعليق، فإن الكاتب يدعو ويلح ويتوسل باحثا عن «موسوليني مصرى» يخلص البلاد من مخاطر الثورة..

ولقد كان كل مجد موسوليني عند الرجعية المصرية يتلخص فى أنه «أسكت المعارضة فى البرلمان الإيطالى. وصان بذلك حياة المملكة التى كانت جرائدها ولسان معارضتها تقودها بخطوات سريعة نحو البلشفية»[٤].

كذلك تنشر جريدة المحاكم المختلطة مقالا جاء فيه: «بينما مصر تتسلح بما لديها من قوانين مكتوبة وغير مكتوبة للدفاع عن كيانها إزاء الدسائس الشيوعية قد يكون مفيد إلقاء نظرة إلى الحرب العوان التى أعلنها الفاشست فى إيطاليا على العدو المشترك»[٥].

ومن الطبيعى أن يتطور مديح الفاشية إلى الهجوم على الديمقراطية ذاتها..

«فهذا التيار الجارف الذى بدأ فى إيطاليا أخذ بالانتشار شرقا وغربا ودفع الديمقراطية التى لم تعد تصلح لحكم الشعوب»[٦].

وهكذا فإن تمجيد الفاشست هجوما على اليسار المصرى قد تطور ليصبح هجوما على كل القوى الديمقراطية.

ويبدو أن مثل هذا الهجوم قد تردد من فوق منبر البرلمان المصرى الأمر الذى دفع محمد حافظ رمضان إلى أن يصيح من فوق نفس المنبر قائلا: «نحن لا نريد أن نعيش كما

تعيش بلاد أخرى - مهما وصلت مدنيتها - تحت نظام دكتاتورى كنظام إيطاليا ونحن ديمقراطيون ولنا مجلس نيابى.

إن ذكر الدكتاتورية من فوق هذا المنبر والاستناد إلى أعمالها فى البلاد الأخرى ليس من الحكمة السياسية ولا من التربية البرلمانية التى نريد أن نتعلمها ونسير عليها».

والغريب فى الأمر أن الرجعية المصرية قد تساهلت إلى حد السماح للفاشست الإيطاليين بتكوين تنظيمات لهم وسط الجالية الإيطالية فى مصر..

ولقد تابعنا فى الجزء الأول من هذه الدراسة النشاط الواسع الذى لعبه الاشتراكيون الإيطاليون وسط هذه الجالية الكبيرة العدد فى مصر، وكيف أثروا أيضا فى نشاط اليسار المصرى فى مطلع القرن العشرين، وكيف أسهموا فى تأسيس الحزب الاشتراكى عام ١٩٢١.

ولقد كان الاشتراكيون الإيطاليون مصدر قلق بالغ للرجعية المصرية، فأطلقت ضدهم التنظيمات الفاشية.

وثمة إشارات فى صحف هذه الفترة إلى وجود هذه التنظيمات الفاشية من بينها خبر أوردته اللطائف المصورة يقول: «.. صورة الطيارة الإيطالية البحرية التى وصلت إلى مصر يوم الجمعة الماضى فى طريقها إلى مصوع. وقد حطت رحالها على ضفة النيل المبارك وأقبل شبان الفاشست الإيطاليين فى القاهرة للاحتفال بطياريها»[٧].

والحقيقة أن موسولينى قد بذل جهده للاستفادة من هذه الفرصة المتاحة أمامه فى مصر فنشط فى تأسيس المدارس الإيطالية فى عدد من المدن المصرية ليلقن فيها الطلاب من إيطاليين ومصريين أمجاد الفاشست، وهكذا حلت هذه المدارس محل «الجامعة الشعبية» التى أنشأتها قوى اليسار الإيطالى فى الإسكندرية فى مطلع القرن العشرين لتكون منارة للفكر الاشتراكى.

وكما وجد موسولينى من يدعو له.. وجد هتلر هو الآخر دعاة نشيطين فثابت ثابت يصدر ملحقا خاصا من مجلته «الفلاح الاقتصادى» بعنوان «ألمانيا اليوم.. أدولف هتلر».

وبطبيعة الحال فقد كانت أهم أمجاد هتلر هى ضرباته ضد البلاشفة..

«أخذ المستشار هتلر بالعمل فى غير توان فى التعمير والتهذيب وتدعيم قوة الرايخ والدفاع عنه من أخطار البلشفية، والبلشفيون يقيمون العثرات فى سبيل الحكومة بأعمالهم

الإرهابية وبالدعاية المزيفة. ثم جاء حادث البرلمان وكان الحادث الأخير فيما يدبره البلشفيون، ولم يكن الأوحد فرأى هتلر حل الريشستاغ. وفى ٢١ مارس ١٩٣٣ انعقد البرلمان الجديد وذهب هندنبرج إلى كنيسة بوتسدام وهناك عند ضريح فريدريك الكبير قال قوله المشهور «استيقظت ألمانيا، لتعود إلى تقاليدها الشريفة القديمة[٨]».

إن نظرة على سيل الكتب التى صدرت خصيصا لتمجيد النازية والفاشية والدعوة لها لتوضح لنا مدى عمق هذه الحملة واتساعها.. ولنورد بعض الأمثلة:

- أحمد محمد السادات - أدولف هتلر زعيم الاشتراكية الوطنية مع بيان المسألة اليهودية - عام ١٩٣٤.
- محمد لطفى جمعة - بين الأسد الأفريقى والنمر الإيطالى - عام ١٩٣٥.
- رياض جيد - الإمبراطورية الإيطالية - عام ١٩٣٧.
- فتحى رضوان - موسولينى - عام ١٩٣٧.
- محمد صبيح عبدالقادر - هتلر - عام ١٩٣٧.
- ثابت ثابت - ألمانيا اليوم - عام ١٩٣٨[٩].

وكان لا بد لهذه الموجة من الدعاية التى شجعتها الرجعية المصرية عن عمد أن تجد لها أثرا فى أوساط عديدة..

فعباس حليم يعمل «على تشكيل فرق خاصة من الشباب يطلق عليها اسم «جيش الخلاص» تلقت تدريبا عسكريا شبيها بنظام الكشافة وألحق بها الشباب من طلبة المدارس وفرض على الأعضاء تحية خاصة برفع اليد»[١٠].

كذلك نمت هذه الاتجاهات فى عدد من التنظيمات الحزبية الصغيرة مثل مصر الفتاة والحزب الوطنى. بل إن حزب الوفد قد انجرف هو أيضا فى هذا التيار الخطر.. وثمة وثيقة مهمة من وثائق وزارة الخارجية البريطانية[*] تتحدث عن محاولة الوفد هذه فتقول «فقرة ٢٠٦: اتخذ مؤتمر الشباب الوفدى قرارا فى ٩ يناير بتأسيس منظمة للشبيبة على النهج الفاشستى وقد أيد الوفد هذا الاتجاه بعد أن وجد أن أحزاب الأقليات قد بدأت فى تجنيد عديد من الطلاب فى تنظيمات فاشستية بهدف حشدهم فى حركة مناهضة للوفد.

فقرة ٢٠٨ - تأسست لجنة من حزب الوفد لتنظيم وإعداد القمصان الزرق الذين وصلتنا تقارير تفيد أن عددهم قد بلغ فى يوليو ١٠,٠٠٠ شخص والذين تقوم نسبة

ضئيلة منهم بنشاط جدى وقد تكونت لجنة من ثلاثة من الضباط السابقين للإشراف على التدريب العسكرى. واختير النحاس باشا رئيسا للحركة.

فقرة ٢٠٩- وفى يوليو قام القائد العام بتحذير مكرم عبيد من السماح لهذه الحركة بالنمو دون رقابة.. ورد الأخير بأن تعليمات قد صدرت لقادة القمصان الزرق بأن يوجهوا نشاطها نحو المسالك القانونية فقط مثل الرياضة وأعمال الكشافة.

وأشار مكرم عبيد إلى أن الحزب حريص على ألا يتولى أحد السياسيين أى منصب قيادى فى القمصان الزرق.

لكن هذه التأكيدات لم تنجح فى أن تمحو أو حتى أن تقلل من خوف المسئولين المصريين من تطور هذه الحركة..

وهكذا فإن البعبع الذى صنعته الرجعية المصرية وأطلقته ليرهب حركة اليسار قد انقلب ليخيفها هى.

والحقيقة أن الفاشست قد جعلوا من القاهرة واحدا من أهم المراكز لتجسسهم ونشر نفوذهم فى المنطقة وثمة معلومات بالغة الأهمية فى هذا الصدد توردها مجلة: The Communist international فى مقالة مهمة عن «الدعاية الفاشستية فى الشرق الأدنى» وقد جاء فيها «أن القاهرة هى أحد المراكز الرئيسية للتجسس لحساب الفاشست الإيطاليين والألمان وفى اجتماع عقده العملاء الفاشست فى القاهرة وضعت خطة عامة لنشر الدعاية الفاشستية فى الشرق الأدنى.. وقد رصدت وزارة الدعاية الألمانية مبلغ ٣٠٠٠ جنيه إسترلينى شهريا للدعاية الفاشستية بالقاهرة. إن القطن المصرى وأرض وادى النيل الخصبة تداعب جفون وأحلام كلا من هتلر وموسيلينى. إن الدعاة الفاشست يرددون للجماهير المسلمة دعايات تقول إن الكثيرين من الألمان والإيطاليين قد اعتنقوا رسالة محمد.. وهم يوزعون كتاب «كفاحى» باعتباره قرآنا جديدا».

ويمضى المقال متحدثا عن آلاف الجواسيس الألمان الذين يعيشون فى منطقة الشرق الأوسط ثم يقول: «وفقا لما أوردته الصحف التركية فإن فى مصر وحدها ما يزيد على ٣٠٠ جاسوس.. كما أن الدعاية الفاشستية تساند أيضا فكرة معاداة السامية»[١١].

وثمة وثائق عديدة أودعتها الخارجية البريطانية بالمتحف البريطانى (لندن) تشير إلى علاقات وثيقة بين ألمانيا النازية وكل من القصر الملكى (البندارى باشا، على ماهر باشا

وصهر الملك فاروق) وجماعة الإخوان المسلمين، بل إن الاستيلاء على وثائق بنك (درسدنر بنك) الألمانى بعد الحرب العالمية الثانية قد كشف وجود علاقات مالية أيضا كان على ماهر وعزام باشا والإخوان المسلمون طرفا فيها.

والحقيقة أن هذا النشاط الفاشى كان فى ذاته حافزا لنشاط ديمقراطى مضاد. وتجمع آلاف من العناصر المناهضة للفاشية وللعداء للسامية والمناصرة للديمقراطية والتحرر وتحذر من خطرها. ومن هذا الخضم الجديد نبتت تجمعات يسارية كانت إرهاصا لموجة التنظيمات الجديدة.

كذلك فإن انغماس يسار الثلاثينيات فى النضال ضد الفاشية قد دفع دوائر الاحتلال إلى أن تغمض عينها عنه لبعض الوقت مستفيدة من حركته ضد الفاشية.

بل إن الإنجليز وجماعتهم «إخوان الحرية» قد اتصلوا بكورييل والنادى الديمقراطى يطلبون «تعاونا» فى النضال ضد الفاشية، وإذا كان كورييل قد رفض مثل هذا التعاون[١٢] فإن الذى لا شك فيه أن معركة النضال ضد الفاشية كانت فرصة لطلائع اليسار الجديد أتاحت لهم إمكانية العمل العلنى الواسع النطاق والتمتع بتغاضى الحكام إلى حد ما لفترة كافية من الوقت مكنتهم بالفعل من أن يجدوا الفرصة الكافية للانطلاق نحو تأسيس منظمات ماركسية..

ومرة أخرى، فإن حسابات الرجعية تنقلب رأسا على عقب، فإذا كان «البعبع الفاشى» قد أطلق ليخيف اليسار، فإن الانغماس فى محاربته قد مكن اليسار من أن يقيم لنفسه قواعد راسخة ساعدته على أن يبدأ من جديد موجة من النشاط المنظم.

الهوامش

(١) كل شيء – ١٧ مايو ١٩٢٦.
(٢) اللطائف المصورة – ٢٨ فبراير ١٩٢٧.
(٣) ملحق مجلة الفلاح الاقتصادى. سبتمبر وأكتوبر ١٩٣٨.
(٤) قسطاكى إلياس عطارة – تاريخ تكوين الصحف المصرية – مطبعة التقدم – عام ١٩٢٨ ص١٩٧.
(٥) نقلا عن: الأهرام ١٩٧٤/٩/٨.
(٦) قسطاكى عطارة – المرجع السابق – ص٢٤٧.
(٧) اللطائف المصورة – ٧ مارس ١٩٢٧.
(٨) ملحق مجلة الفلاح الاقتصادى. العدد الثانى عشر. السنة الخامسة ص٢١٩.
(٩) عايدة إبراهيم نصير – (المرجع السابق).
(١٠) رؤوف عباس – المرجع السابق ص٢١٤.
(*) هذه الوثيقة موجودة الآن فى المتحف البريطانى ومكتوب على صفحتها الأولى (هذه الوثيقة مملوكة لحكومة صاحب الجلالة الملك. طبعت كى تستخدم فقط فى وزارة الخارجية. ملف رقم ٣٧١ – ٢٠٩١٩ – سرى – ١٥٢١٧ – أرشيف رقم ٨. مصر. التقرير السنوى عن عام ١٩٣٦ (ل٣٥٢٢– ٣٥٣٢ – ١٦) من السير مايلز لامبسون إلى مستر إيدن. استلم فى ١٩ أغسطس تحت رقم ٩٠٦.
(١١) The Communist International. Vol: XVII-No6 - 1939 - pp.47 By- D.Davos.
(١٢) راجع محاضر النقاش معه بالملاحق.